الزعماء (المتطورون) فى حزب التجمع الافريقى ١٩٤٦ ـ ١٩٥١

د. عبد القادر زبادية

يمر الزعيم الافريقى (المتطور) حسب نظرية فرانتز فانون بثلاثة مراحل وذلك فى طريقه لبلوغ مرحلة « التطور الفكرى ليبلغ درجة الوعى الكامل » :

١ ـ المرحلة الأولى : هى الامتزاج اللامتوازن ، وفيها يكون استيحاؤه أوروبيا ، وعند النجربة يعطى الدليل على انه تمكن من ثقافة « الوطن الام » ويستطيع الاتيان فيهابانتاج مماثل ومقلد (بفتح اللام) .

٢ ـ المرحلة الثانية : هى مرحلة الاضطراب والنهوض الذاتى وفيها : « يقرر (الزعيم) أن يتذكر من هو .. ولكن بما انه ليس جزءا من شعبه وذلك لأن علاقاته بشعبه هى علاقات خارجية فقط ، فانه يكتفى بتذكر كيف يعيشون ليس الا ، فتبرز حوادث الماضى فى اعماق ذكرياته من خلال أيام صباه كما كان قد عاشها ، فالاساطير القديمة يعاد تفسيرها على ضوء الجماليات المستعارة وعلى اساس مفاهيم العالم المكتشف تحت أجواء اخرى »(١) .

٣ ـ المرحلة الثالثة : تتصف بالانتاج القتالى والكتابة الثورية والوطنية وفيها : « فان كثيرا من الرجال والنساء الذين كانوا حتى هذه المرحلة لم يفكروا أبدا فى العمل الأدبى أو الكتابى يجدون أنفسهم فى ظروف استثنائية فهم اما أن يكونوا فى السجن مع ثوار الجبال او على وشك التنكيل بهم فيشعرون بالحاجة الى الحديث لشعبهم ، فيركبون الجمل المعبرة عما يختلج فى صدر أمتهم ، وهكذا يصبحون اللسان الناطق عن واقع جديد للعمل »(٢).

---

(1) Frantz Fanon, Présence Africaine, paris 1963, p. 179.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

ان هذه المرحلة الأخيرة لم يمثلها الزعمـــاء السياسيون فى افريقيـــا الفرنسية قبل مرحلة الاستقلال الا فى حالتين استثنائيتين جدا وهما :

١ ــ هفويت بوانيى أثناء فتـــرة تزعمه لحركة التجمـــع الافريقى الديمقراطى فى الفتـــرة ما بين ١٩٤٦ و١٩٥١ حينمـــا كان ذلك التجمع كنفدراليا شعبيا كما سيأتى بيانه .

٢ ــ بعض الذين كانوا أوفياء لمبادىء ذلك الاتحاد فى الفترة نفسها وعلى رأسهم دربوسيى (D'Arboussier) فى فولتا العليا (بوركينا فاسو حاليـــا) .

وفى غير ذلك فان الزعماء المتطـــورين (Les Evoluers) (٣) كانوا يتوقفون عند بلوغ المرحلة الثانية فقط ، وكانت مطالبهم ومطامحهم لا تخرج عن نطاق ابراز الشخصية فى نطاق النظام السياسى والاقتصادى والثقافى للوطن الام للتخلص من عامل الشعور الاجبارى بالنقص من جراء التمييز الذى يجعلهم فى درجة أقل والذى ظل يلاحقهم بصورة قانونية وعملية حتى بعد بلوغهم مرحلة الثقافة والتطور التى كان يوجد عليها أترابهم من الفرنسيين لحما ودما ، ويضاف الى هذا المطالبة بتطبيق القوانين الدســـتورية على شعوبهم بالشكل الذى اعترفت به وأقرته السلطات الفرنسية نتيجة للتطور الذى أدخل عليها بعد الحرب فيما يتعلق بالمستعمرات كنتيجة وتفادى معا للظروف الخارجية القاهرة .

ويعزى للهجين السنغالى أبى بوالات (Abbé Boilat) حين تأليفه لكتاب فى النحو للغة الولوف (Wolof) سنة ١٨٥٣ ضيقه ، ولأول مرة ، ذرعا بما كان يذهب اليه الفرنسيون من نفى أى تطور حضارى لغوى للافارقة ، فاستفهم : كيف يكون ممكنا لهؤلاء الرجال من غير ثقافة ومن غير نحويين ولا أكاديميين ولا حتى قواعد كلامية أن يكون فى لغتهم مثـــل هذا الترتيب وقواعد البناء والطريقة ؟

---

(٣) أى الذين تثقفوا الى حد ما فى المدارس الفرنسية وارتقوا عن مستوى الأهالى العاديين واصبحوا أقرب الى الفرنسيين فى تفكيرهم وارتباطهم ونظام حياتهم .

ثم أجاب عن هذا التساؤل بقوله : « انه بالرغم من أن الولوف هم سود كمعظم السود الأفارقة ، فان لهم الاعتقاد الأكثر تواضعا فى انهم البيض الاكثر نقاوة ، وان أكثر ما يجرحهم هو أخذهم كعبيد او جنود مكبلين للحمل (Serrers) .. ومعنى أن تكون مسيحيا فأنت أبيض ومعناه أن تكون حرا وأن تكون لك حقوقك »(٤) .

مثل هذا الشعور هو تعبير عما كان يختلج فى نفسية كل افريقى (متطور) تجاه موقف الاوروبيين منه فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهذا يشير الى حقيقة هى أن مطالب المتطورين كانت تتطور مع الزمان ، والانسان ابن محيطه كما يقولون فبعد خمسين سنة من الشعور الذى أبداه بوالات هذا نجد سنغاليا (متطورا) آخر هو نديای سلدور (N'Daye Celdor) الذى كان فى سنة ١٩١٢ نائب الرئيس فى الاتحاد السنغالى لنشر اللغة الفرنسية يصرح بأن الحاكم الفرنسى العام : « لا يحب السود .. وقد عمل منذ مجيئه فى عام ١٩٠٤ على القائنا بوحشية خارج مجموعة زملائنا من الوطن الام »(٥) .

ولكن قضية المتطورين لم تظهر بوضوح الا فى بداية الحرب العالمية الأولى واثناءها وبعدها ، ومن بين الأوائل الذين يمثلونها فى الحقبة الأولى هو بليزديان (Bilaise Diagne) ولذلك فهو يستحق هنا بعض العناية . ينحدر بليزديان من طبقة وسطى ازداد اتساعها من جراء قرنين من التجارة الفرنسية فى منطقة الساحل السنغالى ، وقرن واحد من الثقافة الفرنسية فى الأربع بلديات السنغالية التى ارتقى قسم من سكانها حتى ذلك الوقت ، الى درجة التمتع بالحقوق السياسية وأصبحوا (مواطنين) فرنسيين ، ولهم الحق فى انتخاب ممثل عنهم الى الجمعية الوطنية الفرنسية . وقد كان بليزديان أول افريقى ينتخب لهذا المنصب فى السنة ١٩١٤(٦) .

وأثناء المعركة الانتخابية وقف الى جانب ديان طائفة لبو (Lebou) والزعماء المسلمون والمثقفون المتطورون الذين كانوا قد انضموا فى جمعية

(4) Claude Wauthier, L'Afrique des Africains, paris 1944,p.41.

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ .

(6) Robert Delavignette, Freedom and authority in French west Africa, London 1950, p. 420 ff.

أطلقوا عليها اسم « الشباب السنغالى » ، وكان هدفها هو المطالبة بالاجور المماثلة للموظفين الأفارقة باجور الفرنسيين ، وفى سنة ١٩١٦ ، كان هناك اتجاه فى فرنسا لالغاء حقوق المواطنة التى كانت البلديات السنغالية الأربع تتمتع بها ، فوقف بليزديان ضد ذلك الاتجاه ، ونجح فى تثبيتها . وفى سنة ١٩١٧ عين بليزديان مندوبا ساميا للتجنيد فبلغ عدد الأفارقة الذين جندوا مائة وثمانين الفا ، وكانت فرنسا فى حاجة شديدة لهم وكانت الخسائر بينهم كبيرة ، ولكن الحاكم العام فولنهافن (V. Vollenhaven) وقف ضد تعيين بليز فى هذا المنصب لأن ذلك يؤدى الى التضييق من صلاحيته ولأنه كان ضد تكاثر الأفارقة فى الجيش ، وعندما لم ينجح فى مسعاه اضطر الى الاستقالة(٧) . وقد اعيد انتخاب بليز فى سنة ١٩٢٠ بأغلبية ، وعمل كرئيس للمؤتمر الافريقى لسنة ١٩١٩(٨) . وفى الوقت الذى كان فيه ديان يدافع دائما عن امتيازات المواطنة الفرنسية للبلديات الأربع السنغالية فانه عرف الى جانب ذلك بوقوفه الى جانب النظام الاستعمارى فى البلاد الى حد انه كان يوجد المبررات للعمل الاجبارى ولانعدام الديمقراطية التى تتمتع بها البلديات الأربع بين المؤسسات الفرنسية الأخرى خارج حدود تلك البلديات ، وأمام نداء ماركوس فريفى للحرية وتصريح ١٩٢٠ المتعلق بحقوق الشعب الزنجى فى العالم ، أجاب بليزديان :

« نحن الأهالى الفرنسيين نرغب أن نبقى فرنسيين ما دامت فرنسا قد اعطتنا كل حرية .. ان النخبة من الأهالى الفرنسيين التى هى المسئولة عن الأهالى فى مستعمراتنا لا تستطيع أن تسمح ، دون أن تكون فاشلة فى واجباتها الجديدة ، بنظريات الانفصال والانعتاق الثورية التى اعطيتموها اسمكم لتحدثوا القلاقل وانعدام النظام »(٩) .

---

(٧) المصدر نفسه .

(٨) عمل قبله فى هذا المنصب كاربوت ولكن هذا كان يختلف عن ديان بكونه كان هجينا ، أبوه فرنسى وأمه سنغالية ، وهو من سان لويس .

(9) CF. Thomas Hodkin «Background to Afrique occidentab Francaise : Afrique Reaction and French role», in west africa, Janury, 1954, p. 313;

Wesley Johnson «The ascendancy of Biiaise Diagne and the beginning of African Polities», In Africa No 3July 1966, pp. 235-252; Chrles Cris, La paroll est. Me Bilaise Diagne, premu homme d'etat Africain, paris 1961, p. 15.

وعند مقارنة هذا التصريح بما جاء فى منشور الدعاية الانتخابية الذى أصدره ديان مع انصاره نلاحظ الى أى حد كان للرجل (المتطور) مجال يعمل فى نطاقه ولا يتعداه فقد جاء فى ذلك المنشور :

« اذا كنتم ترغبون فى أن يكون لكم مكان تحت الشمس ، اذهبوا لصناديق الاقتراع ، ليس لتتخذوا لكم سيدا ولكن لتختاروا بحرية صديقا من جنسكم يدافع عنكم فى كل مجال ، وذلك مما يجعل مناهضيكم يضطرون امام فكركم السياسى وتيقظكم الاجتماعى »(١٠) .

وقد ذهب الزعماء المسلمون الى تأييد بليز ضد منافسه كاريوت وكان لهم دور كبير فى انجاحه ، قال كاربوت : ان « المرابطين » قد حصلوا على التزام من عدد كبير بين الناخبين فحلفوهم بالقرآن لكى ينتخبوا ويحصلوا على أصوات اخرى لصالح ديان . وهذا الاخير قد قدم نفسه على انه المرشح الأهلى الحقيقى ، وقد قرر المرابطون أن كل من لا ينتخب لصالحه يعتبر مرتدا ولن يسمح له أن يتزوج أو يدفن وفقا لقواعد الدين الاسلامى »(١١) .

وكان الزعماء المسلمون يؤيدون ديان ليحميهم ضد تدخل الادارة فى شئونهم عند الحاجة ، أما فى غير ذلك فان ديان المتطور لم يكن لينظر الى استقلال الافارقة بغير المنظار الذى كان ينظر به اليه الفرنسيون مثلا(١٢) . يقول ديان فى هذا الصدد : « يمكن للانسان أن يتصور يوما سيأتى ، يستطيع فيه الجنس الاسود التحكم فى مصيره بكل نضج ، مع ثقافة عميقة تعطى السود فكرة الشعور القوى بالتضامن الوثيق الذى سيتواجد بينهم وبين فرنسا »(١٣) .

ويذهب ديان فى تفكيره داخل اطار الاستعمار الفرنسى الى حد الاقتناع بالمصير الفرنسى لبلاده ، وهو ينظر الى ذلك بمنظار المقتنع المغتبط بفضائل ذلك الاستعمار فيقول : « اننى من حيث الجوهر من أولئك الذين يقبلون أن

---

(10) Ibid, p. 18.

(11) Irving Markovitz «The Political thought of Bilaise and Lamine Guye, in Présence Africaine, No 72 paris 1969, p. 28.

(12) Cros, op. cit. p. 137.

(13) Ibid.

التقليد السياسى لفرنسا .. يمكن أن يجد أهدافه النهائية فى الوحدة ، وفى نفس الوقت فى الفكرة والعقيدة وفى الوحدة الروحية بين الوطن الام فرنسا وبين عرقيات الشعب المنتشر عبر ممتلكاتنا فيما وراء البحار .. اقول ذلك وأنا أحمل فى فكرى أن نهاية الاستعمار هى الوحدة ويجب على أن اضيف أن كل خاصيات الاهالى يجب أن تحترم فى تقاليدها وعاداتها » ويستطرد ديان (المتطور فى تفكيره هذا) الى القول : ان كل ما يربطنا والذى يجب أن يربطنا فى الوضعية النهائية هو الروح المشتركة ويبدأ ذلك بالمصالح المادية أولا ، ثم تتبع بمجهودات مشتركة لتثقيف الأهالى الذين سوف يؤدى بهم ذلك تدريجيا الى مستوى (الفرنسيين) وذلك ما سيكون اسمنت الرابطة التى لا تنفصل بيننا » .

ثم يضيف ديان الى رايه هذا الاشارة الى ما احدثته ظروف الحرب ويفسر دور الأفارقة الذين كان يسهر على تجنيدهم لها بانه مجهود مشترك فى هذا النطاق ، فيقول « والى هذا الحد يجب أن نذكر ، بالرغم من أن هذا أصبح الآن بديهيا ، ان الحرب قد تجاوزت كل هذا وخلفت وضعية ، سواء من أحب أم كره ، فانها انتجت الجهود المشتركة والتضحيات المشتركة والمصير المشترك »(١٤) .

ويرى ديان أن الاستعمار الفرنسى لا يمكن أن يقارن بغيره ، لأن (أساسه انسانى) فى حين أن غيره من أنواع الاستعمار انما يدفعها دوافع مادية . ويرى أن من واجب جميع المواطنين أن يعملوا ما فى وسعهم للتغلب على المساوىء الموجودة فى الاستعمار كأى شىء انسانى فى الحياة له مساوئه ومحاسنه ، وهو فى هذا التحليل يذهب الى حد نعت الاستعمار الفرنسى بالتقدم والاجابية » . ثم يستطرد الى القول :

« اذا كنا نعترف بأن الاستعمار الفرنسى ، كأى عمل انسانى آخر له بعض النقائص ، ونحن هنا لنعمل على اختفائها ، فانه من حقنا أن نؤكد على القول بان فرنسا قد تسببت للاهالى الأفارقة أن يجتازوا فى وقت قصير مرحلة من التطور ، اذا نحن أردنا وزنها فانها أكثر اعتبارا مما مرت به فرنسا خلال ما يقرب من العشرين قرنا ، وما ذلك الا لأنكم اشتملتمونا وضممتونا فى

(14) Ibid.

اهتماماتكم الوطنية الأساسية تحت ظروف معينة ، وسيصبح منذ الآن فصاعدا لا يخدم بلاده ولا مصالحها ولا مصالح فرنسا القارية ولا مصالح مواطنيه ، من سيقول لكم هنا أن الاستعمار يجب أن تكون له نهاية أخرى غير التى تربط مصالحنا اكثر وتجعلها مشتركة »(١٥) .

لقد عبر واكد ديان عن نظرته وفلسفته هذه تجاه الاستعمار الفرنسى فى خطبته أمام أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية بتاريخ فاتح يناير (جانفى) ١٩٣٠ ، وكانت بمثابة رد منه على بداية احترام المطالب الوطنية فى جهات أخرى ، لأنه كان يرى أن من مصلحة بلاده هو الارتباط بفرنسا الى الابد ولا عجب فى ذلك فهو رجل (متطور) .

ان ديان يمثل فكرة الجيل الأول من (المتطورين) فى نطاق الاستعمار الفرنسى بافريقيا الفرنسية دون شك ، ولم يبتعد جيل المتطورين الذى أتى بعده عن هذه الفكرة الا فى بعض الشكليات .

يمكن أن يعتبر لمين قاى (Lamine Gueye) شخصية بارزة أمام المؤرخين لتمثيل الجيل الثانى . لقد حارب لمين قاى حتى الاستقلال المظاهر البيروقراطية والتمييز العنصرى فى الاستعمار الفرنسى ، وقد كان من الوجوه البارزة بين المتطورين من حيث المستوى الثقافى فقد حصل على درجة دكتوراه الدولة من جامعة باريس فى سنة ١٩٢١ وخصص بحثه فيها لاثبات التعايش الحاصل بين المجموعة التى ارتقت الى مستوى (المواطنة الفرنسية) وبين المجموعة التى كانت تعيش تحت طائلة القوانين الخاصة بالأفارقة ، وقد كون لنفسه انصارا من حوله ، ادعوا اتباع أفكار الاشتراكيين ، وهم المجموعة التى تطورت تحت زعامته فى سنة ١٩٣٠ لتشكل (الفدرالية السنغالية) كفرع افريقى للحزب الاشتراكى الفرنسى .

وقد دافع بشدة مع انصاره فى الفدرالية السنغالية وبمساعدة الحزب الاشتراكى الفرنسى لهم على وجوب القبول القانونى للنخبة الافريقية (المتطورون) كى تصبح لها حقوقها فى المساواة مع المواطنين الفرنسيين بالأصالة وذلك ، فيما يتعلق بالواجبات والفوائد الاجتماعية والاقتصادية والامتزاج السياسى ايضا (Assimilation Politiqué) .

(15) Ibid, pp. 24-27; Markovitz, op. cit, p. 31 F.

ورغم ذهاب لمين قاى هذا المذهب منذ وقت مبكر ، فانه لم يستطع البداية فى تحقيق ما كان يصبو له تدريجيا الا بعد الحرب الكونية الثانية ، ففى ٧ مايو ١٩٤٦ صدر قانون لمين قاى الأول القاضى بان كل هؤلاء الذين هم تحت تشريع الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار لهم كمواطنين فرنسيين نفس اتساع ذلك التشريع لمواطنى الوطن الام . لقد كان لمين قاى (متطورا) لذلك كان يدافع عن طبقة المتطورين بالدرجة الأولى ، وهو الذى قدم مشروع هذا القانون وسمى باسمه .

وفى سنة ١٩٥٠ صدر قانون ثان باسم لمين قاى أيضـا يقتضى بأن الموظفين الأفارقة جديرون بأن تكون لهم حقوق متسـاوية مع الموظفـين الفرنسيين .

وفى كتابه مراحل وآفاق الاتحاد الفرنسى (E'Tapes et perspectives de L'union Francaise) الذى أصدره حينما أصبح عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الاشتراكى الفرنسى فى باريس ، دافع لمين قاى عن الاتحاد الفرنسى، ولم يتوقف فيما ابداه من آراء فى هذا الكتاب عند حدود ذلك الاتحـاد كما اقتضاها دستور ١٩٢٤ بل ذهب الى الدفاع عن فكرة (العمل العقائدى) على حد تعبيره فيما يتعلق بهذا الاتحاد ، وكان يرى أن نظرية العمـل العقائدى هذه تهدف الى توحيد الأفارقة بالفرنسيين (مخترعى الحريات) على حد تعبيره ، واقترح عددا من الاصلاحات تهدف كلها الى اشتراك الأفارقة فى مختلف المؤسسات السياسية الموجودة آنذاك ، وكان من جملة ما اقترحه فى هذا الصدد :

« على المستوى الوطنى (يتكون) مجلس يدعى للعمل ليتعرف على المشاكل الكبرى لما وراء البحار ، وتعطى له الصلاحية اللازمة كبرلمان مختص، وان حضور اغلبية منتخبة من خارج الوطن الام فيه سوف يجعـل أمامه مشاكل عاطفية وسياسية أقل من تلك التى تظهر فى حالة مجلس الاتحـاد الفرنسى الحالى الذى سيتطلب دستوره ادخال تغييرات عليه »(١٦) .

---

(16) Lamine Guye, étapes et perspectives de L'union Francaise, edition de L'union Fransise,paris 1955, p. 39..

ويرفض لمين قاى كبقية المتطورين فى افريقيا الغربية الفرنسية فكرة الاستقلال ليستبدلها بفكرة المناداة بالمساواة تحت السيادة الفرنسية فيقول حرفيا : « ان المطلوب من فرنسا هو بكل دقة المعاملة بالمساواة فى تطبيق قوانينها »(١٧) .

وعندما تأسست المجالس الاقليمية والمجلس (الفدرالى) المسمى بالمجلس الكبير فى افريقيا الاستوائية والغربية الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية ، كان لمين قاى من المتحمسين للاستفادة من هذا العمل الفرنسى فى تأكيد نظرياته الاتحادية ، فخطب فى روفيسك مثلا فى ٢ ديسمبر ١٩٤٦ قائلا : « اننا سنتمكن من عمل كل شىء من خلال فرنسا ، كل شىء من خلال الجمهورية ولكن لا شىء بدون فرنسا ولا يمكن شىء بدون الجمهورية »(١٨) .

بين لمين قاى وسنغور :

كان سنغور من اتباع ومحمى لمين قاى فى البداية ، وكان قد قضى فترة طويلة خارج السنغال ، قضاها فى فرنسا ، حيث حصل على شهادة التبريز فى نحو اللغة الفرنسية ، فلما رجع للسنغال انضم الى لمين قاى فاصبغ عليه من الحماية ما مكنه من الدخول فى سلك الزعامة السياسية بين فئة (المتطورين) .

وكان سنغور قد حضر عددا من المؤتمرات الطلابية بالخصوص اثناء تواجده فى اوروبا وكان من بين الذين التقى بهم وتأثر بافكارهم هو ايمى سيزار من المارتينيك الذى كان من ابرز من تعود اليهم الدعوة الى الجامعة الزنجية ، وهى فكرة يعود الفضل الأول فيها الى زنوج البحر الكاريبى واميركا ، وقد وجدت رواجا بين فئة (المتطورين) والأفارقة فى البداية ، لما كانت تشبعه فى نفوسهم من حب البحث عن الأصل الحضارى والشخصية ، وهى قضية لا تتعارض مع التفكير الأوروبى بحال .

وبعد نهاية الحرب الكونية الثانية كان هناك تطور فى المستعمرات الافريقية من حيث الافكار والمطامح يفوق مجرد طلب المساواة مع الفرنسيين

---

(١٧) المصدر نفسه .

(18) Harkovitz, op. cit. p. 34.

الذى لم يستطع لمين قاى الخروج عنه ، لأنه بحكم تكوينه وارتباطاته الاجتماعية على الأقل كان ليس فى امكانه ملاحظة تلك التطورات الجديدة فى عقول الافارقة من حوله ، وقد استطاع سنغور أن يفهم ذلك ، فانشق عن لمين قاى وبزه فى الزعامة منذ نهاية الخمسينات ، ولم يخرج سنغور عن المحيط الفكرى والسياسى الذى كان لمين قاى يعمل فيه ، ولكنه تفوق عليه فى اتساع المحيط الاجتماعى الذى اختاره للعمل ، دون أن يرتبط بالثناء على كل ما تنجزه فرنسا وانه لصالح الأفارقة بالصورة التى اشتهر بها لمن قاى .

كان لمين قاى ارستقراطيا من سكان داكار ، وتولى من المناصب الهامة شيخا لبلديتها ، ورئيسا للمجلس الفدرالى ، وأخيرا وزيرا فى الحكومة الفرنسية ولمدة طويلة كان نائبا فى الجمعية الوطنية الفرنسية ، وأهم من ذلك كله كان يعيش فى صداقات مستمرة مع الحكام الفرنسيين ، ويعين أنصاره فى المناصب المحلية بمساعدتهم ، فى حين انحدر سنغور من وسط اجتماعى أقل وعرف كيف يتغلب على زعامة قاى ، وهو الكاثوليكى المخلص ، حتى فى الأوساط الاسلامية ولم يتم له ذلك دون مساعدة الفرنسيين بالطبع ، وذلك بعد أن ادركوا أن سنغور بأفكاره أصبح يستطيع ملء الميدان السياسى فى الفترة الجديدة التى أصبحت تعج بما لا تكفى له مبادىء لمين قاى وحدها .

لا يمكن اعتبار سنغور وجها للجيل الثالث فى فئة المتطورين ولكنه حلقة وصل بين افكار الجيل الثانى ومتطلبات الوضعية الجديدة بعد الحرب الكونية الثانية .

فهو استمرار للجيل الثانى فى قالب جديد ، يتفق سنغور مثلا مع لمين قاى فى الارتباط مع فرنسا ولكنهما كانا قد (اختلفا) فى الطريقة التى تنتهجها فرنسا فى الصرف المالى ، فسنغور له أوليات فى هذا الشأن ، فقد جرت بينهما محاورة علنية فى سنة ١٩٤٦ حينما بدأ فى السير نحو (الخلاف) فانتقد سنغور الأسلوب الفرنسى فى انفاق ١٤ مليون من الفرنكات على التعليم الابتدائى فى كامل السنغال ، ولكنها صرفت فى الوقت نفسه ١٧ مليونا من الفرنكات على انشاء محطة خاصة بالشرطة فى داكار فكان جواب لمين قاى (ليس نحن الذين ندفع) ، فراح سنغور فى الرد على هذه الحجة قائلا : « هل قدمت فرنسا لافريقيا لتدفع حضارتنا الى الامام عن طريق الاحتكاك بها أو انها جاءت لتدخل دون سابق انذار خطر الشرطة وذلك على

اكتاف الناس الذين يعيشون أصلا وفق حضـــارة جماعية لا حاجة لهـــا بالشرطة »(١٩) ؟

وادا كانت مثل هذه النظرة للاشياء تكشف عن الكيفية التى يختلف حولها تفكير الرجلين فهى تعبر الى حد كبير عن اختلاف الفترة الزمنية كذلك، فقد جاء سنغور فى وقت أصبحت فيه النظرة الى واجب الحكمة لا تنحصر فى مجرد المحافظة على الأمن ، وكانت هناك مطامع الفئات الاجتماعية الأخرى من خارج المدن لما اتسع مجال الانتخاب ليشملهم أكثر من السابق ، يضاف الى ذلك توسع المجال أمام فئة (المتطورين) الدنيا الغير محظوظة حتى ذلك الوقت(٢٠) . وبالنظر الى أن الاكثرية العظمى من السنغاليين مسلمة ، فقد عرف سنغور كيف يتقرب من الزعماء المسلمين ويضمن تأييدهم له ، معتمدا على (انتقاداته) فى نطاق الارتباط بفرنسا ، وقد أعلن ذلك مفتخرا فى المجلس الوطنى الفرنسى بقوله : « لقد استقبلنا بحفاوة من طرف كبـــراء المرابطين السنغاليين ، أما مناهضونا فقد ردوا بأدب »(٢١) .

وأخيرا فقد استقبل السنغاليون الاستقلال تحت زعامة حزب الكتلة الديمقراطية السنغالى Bloc Démocratique Sénégalais (B.D.S) الذى أسسه وتزعمه سنغور ، ثم تحول الى حزب الاستقلال الافريقى ، وظهر كأن كل التطورات كانت تسير بانسجام منذ مؤتمر برازافيل سنة ١٩٤٤ والذى خطط فيه الفرنسيون لتطور افريقيا السوداء الفرنسية فى اطار الاتحاد الفرنسى وباشراك (المتطورين) الأفارقة ، ووضع الحكم فى أيديهم فى حالة الاضطرار .

هوفويت بوانيى والفترة الاستثنائية :

ركزنا لحد الآن عن الأوضاع السياسية بل تطور التفكير الســـياسى لدى فئة الزعماء (المتطورين) كما تمثلها السنغال ، وذلك لأن الســـنغال وداكار بصورة خاصة كانت لا تزال لهما أهميتهما فى التأثر بالفرنسيين أولا

(19) Recueil des Intervention faite a'lanemble natianal francaise par le peruidet Lequld sédar seyhed de 1946, (DAKAR),inteventian de 21 Mars 1946.

(20) Erving, M., Leopdd Sedar senghor and The politics of negritudi, N.York, 1969.

(21) Sengor, hecueil. op. cit., 21/8/1951.

ثم فى التأثير ضمن المخطط الفرنسى دائما وبواسطة فئة المتطورين هذه على المستعمرات الفرنسية الأخرى فى افريقيا جنوب الصحراء ، ويعود ذلك الى انها اقدم المستعمرات فى افريقيا السوداء ، وقد ركز الفرنسيون عليها كمحطة لكل ثقلهم الثقافى والتجارى فى افريقيا السوداء بمثل ما كان الأمر بالنسبة للجزائر فيما يتعلق بموقعها فى الشمال الافريقى ، وبوضعيتها الخاصة كذلك بالنسبة لجميع مستعمراتهم فى افريقيا . وقد كان لما يجرى فى السنغال صداه واثره على بقية المستعمرات ، الا فيما يتعلق بفترة التجمع الديمقراطى الافريقى الذى أسسه وتزعمه هوفويت بوانيى (من ساحل العاج) ، وقد وقف منه الزعماء المتطورون فى السنغال موقفا خاصا كما سنرى ، وتراجع فى الأخير عن شكله الثورى الفدرالى بتراجع زعيمه .

تأسس حزب التجمع الديمقراطى الافريقى فى اكتوبر ١٩٤٦ بمدينة باماكو(٢٢) ، ويعود أساس وجوده الى فكرة اقتناع الممثلين الأفارقة بوجوب الاتحاد ضد التحفظ الذى يبديه الممثلون الفرنسيون والادارة امام بعض مقتضيات الدستور فيما يتعلق بالمستعمرات ، ولتحقيق هذه الفكرة تنادوا لاجتماع فى باماكو على هذا الأساس ، وقد احتوى البيان الذى صدر انذاك آراء كل من هوفويت بوانيى ، لمين قاى ، سنغور ، ابيتى (من الداهومى آنذاك ، بنين الآن) ، فيلى دابو سيسوكو (من السودان) (مالى فيما بعد) ، ياسين ديالو (من غينيا) ، فيليكس تشيكايايا وغابريال داربوسى (من افريقيا الاستوائية) . وكانت فكرة الجميع أن يشكلوا جبهة موالاة للدستور والعمل على تطبيقه دون اهمال فيما يتعلق ببلدانهم . وقد شاءت الظروف أن يتزعم هذا التجمع هوفويت بوانيى بروح ثورية فعلا ولمدة تقرب من عشر سنوات . وكان هفويت بوانيى قد تأثر فى هذه الفترة بتطور الوضع النقابى فى بلاده ساحل العاج ، حيث وقعت احتكاكات بين المزارعين الأوروبيين والأفارقة من منتجى الكاكاو والقهوة ، ونتيجة لتضارب المصالح ووقوف الادارة الى جانب الأوروبيين لتضمن لهم مجال التنافس الأقوى هناك ، وذلك بتطبيق اجراءات على غاية من التميز لصالح الاوروبيين . وهذا ما أدى الى تأسيس النقابة الافريقية الزراعية

---

(22) Rassemblement Democratique Africain (R.D.A).

Syndicat Agricole Africain (S.A.A) فى ساحل العاج واسندت رئاستها الى هفويت . وكانت تلك النقابة أول تجمع جمع حوالى ٢٠ الف افريقى فى نطاق يتجاوز الاطار القبلى ليقف ضد شره الاوروبيين وعنصرية الادارة .

ولد هفويت بوانيى فى ١٩٠٥ فى ياموسوكرو بساحل العاج ، وهو ينحدر من أسرة رئاسة تقليدية فى منطقته . وقد خلف على الزعامة المحلية هناك أحد أعمامه العمدة اكوى (Chef Akoué) الذى كان قد اغتيل نتيجة لشدة موالاته للفرنسيين . وقد حاول ولداه تحويله عن المدرسة الفرنسية خفية ، وذلك لكى يتثقف تقليديا ويتهيأ لمهامه فى المستقبل . الا أن تهرب بعض أولاد الاهالى الاخرين أيضا عن المدرسة الفرنسية ، كما هى عادة الافارقة فى جهات كثيرة فى ذلك الوقت ، جعلت رئيس مركز بوزى الفرنسى، يحتجز الصبى فيليكس هفويت بوانيى ليتعلم فى المدرسة الابتدائية الفرنسية، وقد فعل رئيس المركز ذلك تمشيا مع رغبة الفرنسيين فى جلب أولاد الذوات والعائلات ذات الوجاهة التقليدية الى مدارسهم ، كى يكونوا قدوة لغيرهم ويلتزموا بخدمة ثقافتهم على المدى البعيد(٢٣) . وقد تابع هفويت دراسته حتى دخل المدرسة الطبية فى داكار حيث تخرج منها فى سنة ١٩٢٥ طبيبا ، وعاد الى بلاده رئيس مجلة (Chep de Canton) وملاكا من اكبر المزارعين للقهوة ووجيها فى اكبر مجموعة عرقية قبلية هى باوليه (Baoulé) هى اكبر القبائل اهمية وكثرة فى ساحل العاج. وعندما قامت النقابة الافريقية فى سنة ١٩٤٧ بثورة احتجاج دموية فى ابنغورو (Abengourou) بساحل العاج . كان هفويت بوانيى على رئاستها ومؤيدا من الحزب الشيوعى الفرنسى ، وقد اكسبه ذلك شهرة فى كامل افريقيا الفرنسية وخاصة بين الاوساط المناهضة للفرنسيين . وكل ذلك جعل هفويت بوانيى يصبح الشخصية الأولى فى مؤتمر باماكو الذى تأسس فيه التجمع الديمقراطى الافريقى على اساس فدرالى يجمع كل الاتجاهات الوطنية فى افريقيا الفرنسية ، وقد حدد هفويت بوانيى انذاك اتجاه الحزب فى (استهداف تحرير افريقيا من تسلط مقيت هو الامبريالية) .

---

(23) HARDY, G.,Une Conquéte woral. L,enregiment eh Afrique occidentale Franc,aise. paris 1919.

لقد بقى التجمع الديمقراطى الافريقى هدف الادارة الاستعمارية للقضاء على اتجاهاته التى لقيت صدى كبيرا فى الأوساط الوطنية منذ البداية ، وبقى هفويت بوانيى على رئاسته يتعرض للمضايقات حتى الخمسينات . أما بقية النواب « الزعماء المتطورين » فقد ابتعدوا شيئا فشيئا عن حـــزب التجمع الديمقراطى الافريقى منذ البداية نتيجة للضغط الذى تعرضـــوا له بشكل مباشر من الادارة الفرنسية . فقد تغيب فى آخر لحظة عن الحضور فى مؤتمر باماكو لمين قاى وسنغور ، وذلك نتيجة لطلب تلقياه مباشرة من ماروس موتى(Marus Moutet) الوزير الفرنسى للمستعمرات الفرنسية فيما وراء البحار آنذاك فى أن لا يحضرا ذلك المؤتمر . وبعد احدى عشرة سنة كاملة من تلك المناسبة التاريخية كان سنغور لا يزال يحاول تبرير ذلك بخطأ شخصى كان قد ارتكبه دون قصد منه فقال : « ان هناك خطأ قد ارتكب من طرف النواب السنغاليين .. فى رفضهم لحضور مؤتمر باماكو لحـــزب التجمع الديمقراطى الافريقى ، وبالتأكيد فقد كنت شخصيا أريد الحضور الى هناك ، ولم أتردد فى أن أقول ذلك فى ذلك الوقت لزعماء حزب الوطن الام الذى كنت انتسب له(٢٤) لكن يجب على بكل تواضع أن اتحمل نتيجة النقد الذاتى ، وخطئى كان يتمثل فى اطاعتى للاوامر التى فرضت على من الخارج ، فليكن هذا درسا لكم انتم يا اصدقائى »(٢٥) .

كما انسلخ عن هذا الحزب بعد ذلك بمدة قصيرة كل من دابوسيكو وابيتى (Apity) وقد لخص المـــؤرخ الافريقى جـــوزيف كى زربـــو (Ki-Zerbo) وضعية التجمع الديمقراطى الافريقى أمام الاحزاب والحـــكام الفرنسيين فى تحليله التالى : « ان مشروع الاتحاد المقدس هذا من طرف جميع القوى الافريقية الحية والمرموز له باسم التجمع الديمقراطى الافريقى لم يتحقق .. وباختصار فان أحزاب الوطن الأم القت منذ البداية بعـــدم رغبتها فى التشكيلات الافريقية وكان الحزب الشيوعى الفرنسى الوحيد الذى استجاب لدعوة التجمع الديمقراطى الافريقى ، وبالنتيجة فان احزاب الوطن الام الأخرى ، وخاصة مناهضى الشيوعيين ، وبواسطة خداع الحكام الاداريين

---

(٢٤) كان سنغور وقتئذ منتسبا للحزب الاشتراكى الفرنسى .

(٢٥) انظر وثائق الاجتماع التأسيسى لمؤتمر الوفاق الافريقى فى داكار، جانفى ، ١٩٥٧ ، ص ٣ .

الذين كانوا يشترونهم لخدمة اغراضهم فى كثير من الأحيان وكانوا هم الذين يعينونهم ، قد اتخذت التجمع الديمقراطى الافريقى كهدف لها »(٢٦) .

ان موقف الاحزاب الفرنسية من التجمع الافريقى الديمقراطى يعود الى أن جميع الحركات التى أظهرها الزعماء المتطورون كانت فى نطاق الأحزاب الفرنسية وبالانتساب لها ، ومن الطبيعى فان أول ظاهرة للتطور خارج (المؤسسات الام) كانت تعتبر بداية سيئة فى نظر الفرنسيين الذين وجدوا فى مستعمراتهم السوداء مجالا ناجحا ومثاليا للالحاق بعد أن فصلوها عن انتماءاتها الحضارية القديمة وقطعوها عن الاتصال بها(٢٧) .

لقد نجح حزب التجمع الديمقراطى الافريقى فى شكله الظاهرى كفدرالية لمعظم التشكيلات الحزبية المحلية ، فانخرط تحت مبادئه : الحزب الديمقراطى للكامرون ، والاتحاد السودانى ، والحزب الديمقراطى لغينيا ، واستطاع أن يكون له فروعا شملت كل افريقيا الفرنسية ابتداء من القرى الهامة حتى المدن الكبرى ، وكانت له هيئة تنسيق فدرالية (Comité de Ciordination) تشرف وتوجه جميع فروعه، واستطاع بواسطة هذا التنظيم أن يحافظ خلال المؤتمرات الثلاث التى عقدها بين ١٩٤٦ و١٩٥٨ على الأخذ بناصية التوجيه الشامل ويؤكد من خلالها على الولاء التام والاهتمام المشترك لجميع أتباعه فى كامل افريقيا الفرنسية ، بخدمة الأهداف السامية للافارقة ، ونظرا لمبادئه التى تتناقض تماما وأهداف الفرنسيين ، فقد سلطت الادارة عليه جملة من المضايقات فى كل المناطق ، وكانت علاقته بالحزب الشيوعى الفرنسى قوية الى درجة كبيرة ، ومع بداية الخمسينات أثرت عليه عدة عوامل داخلية سلبية من أبرزها الحساسية الاقليمية بين زعمائه . والحقيقة انه منذ البداية كان بين الأعضاء السنغاليين وغيرهم خلافات شخصية ناتجة عن اتجاه الأولين الى عدم الرضى عن تنفذ غيرهم فى شكيلات هذا الحزب الفيدرالى ،وهم يعتبرون أن دور الزعامة السنغالية

---

(26) Ki-ZERBO, Histoire de L,Afique, Paris 1969. p. 505.

(٢٧) كانت كل افريقيا الفرنسية جنوب الصحراء جزء لا يتجزأ من الحضارة العربية الاسلامية وهذا حتى بداية القرن العشرين ، حيث منع السكان بمرسوم ١٩١١ من استعمال اللغة العربية سعيا لقطع جميع العلاقات الحضارية مع العرب .

فى المنطقة يجب أن يعكسه واقع المكانة الخاصة للسنغال كما اقرتهـــا الاعتبارات الفرنسية بالنسبة لكامل المستعمرات الفرنسية فى كامل الغرب الافريقى .

اما هفويت بوانيى فقد مال هو الاخر فى الآخير الى التخلى عن الهدف الفيدرالى وكان من جملة الدوافع لديه على ذلك أن ساحل العاج فى هذه الحالة سيكون نصيبه من المساهمة الضرائبية أكبر وبالتالى فان بقية الاقاليم تستفيد من ذلك على حساب بلاده . لقد امتاز الزعماء المتطورون على الدوام بالاقليمية والمحلية ، وهو واقع ليس له من سبب آخر غير روح القبلية أو الجهوية الضيقة التى تتناسب دائما والتوجيه الفرنسى الأوروبى المبنى على تشجيع الايديولوجية العرقية فى المستعمرات لأن ذلك يساعدهم على التحكم والسهولة فى التسيير حينما تصبح عوامل الوحدة ضعيفة فى كل مستعمرة ويخشى كل قسم من سكانها قسما أو بقية اقسام اخرى .

فى سنة ١٩٥١ قرر هفويت بوانيى كزعيم لحزب التجمع الديمقراطى الافريقى المقاطعة مع الشيوعيين ، فنتج عن ذلك انقسام فى صفوف اللجنة المركزية المسيرة ، وقد تزعم الفئة المعارضة لهذا الاتجاه الجديد غابريال داربوسى (الكاتب العام لتلك اللجنة) ، وكان يتمتع بمكانة مرموقة بين أعضاء اللجنة المركزية ولذلك كان لمعارضته قيمتها وتأثيرها داخل اللجنة المركزية منذ ١٩٥٠ قبل أن يخرج الخلاف حول هذه النقطة عن مراقبة الرجلين . ان داربوسى كان هجينا ،فأبوه كان أحد الحكام الفرنسيين فى افريقيا وأمه تنحدر من سلالة الحاج عمر الفوتى الذى كان كخليفة للتيجانية فى منتصف القرن التاسع عشر بالغرب الافريقى ، وقد دخل فى حروب واسعة ومكن للتيجانية كطريقة من أن تأخذ مكانتها الى جانب القادرية(٢٨) .

وقد شغل داربوسى لفترة منصب حاكم فرنسى فى المنطقة قبل ذلك وكان خبيرا بكل شئونها الادارية والسياسية ، وكان خطيبا مفوها فدخل فى معركة عنيفة ضد هفويت بوانيى حول اتجاهه الجديد ، وكان الأول فى تلك المعركة وكان له انصار كثيرون بين صفوف الطلبة خاصة ، وقد انتهت

(28) A. ZEBADIA, AHMAD AL-BAKAY AL-Kunti- An Historical study of the political and religion role, London, PH.D. thesis 1974, 887 ps.

تلك المساجلات الفوغائية بانسحاب داربوسى من منصبه كمستشار فى الاتحاد الفرنسى وانسحب من الحزب ولم يتصالح مع زعيمه . ولم يعد اليه الا فى سنة ١٩٥٦ حينما أصبحت المعارضة لا قيمة لها ، وكان ممن انسحبوا أيضا وشكلوا اتجاهات مناهضة لزعامة هفويت فى اتجاهه بالتجمع الديمقراطى الافريقى وجهته الجديدة هذه ، جيبو بكارى الذى شكل حزبا مناهضا للتجمع الديمقراطى الافريقى فى النيجر ، وسلك الطريق نفسه أم نيوبى الذى كان كاتبا عاما لفرع الحزب فى الكاميرون ، لما أبعد فرعه من الحزب .

وفى سنة ١٩٥٦ أصبح سنغور زعيما للسنغال فحاول استقطاب الزعماء البرلمانيين لافريقيا السوداء الفرنسية والمناهضين لمبادىء حزب التجمع الديمقراطى الافريقى ، من خلال التجمع البرلمانى لهؤلاء والموجود منذ سنة ١٩٤٨ تحت اسم نواب ما وراء البحار المستقلون Les indépendant d'outer-mer (I.O.M).

وقد فعل سنغور ذلك معتمدا على محاولة توسيع ذلك التجمع بحيث يشمل غير النواب أيضا ، ولكن محاولته هذه لم تنجح ، لأن اتحاد النواب رغم ما أصبغ عليه من طابع شعبى فى الفترة الأخيرة ، فان أهدافه لم تستقطب الناس وبقيت محدودة بين الأعضاء السياسيين النواب وبعض انصارهم الطبيعيين(٢٩) .

وخلال فترة قيام حزب التجمع الافريقى الديمقراطى وفقا لمبادئه السياسية كما شرحناها آنفا التفت حوله فئات عديدة من الافارقة ، ونشطت فروعه فكان لها اعداد كبيرة من المنخرطين فى كل الجهات ، وأرسل كاتبه العام برقية تهنئة للزعيم الروسى ستالين فى عيد ميلاده سنة ١٩٤٨ وكل ذلك مما أثار حفيظة الساسة الفرنسيين فى الوطن الام وفى افريقيا ، وخلقت الادارة أحزابا مناوئة لمبادئه كالفئة التى انشأها سانوفو Sanogo فى ساحل العاج ، كما القى القبض على عدد من اتباع ذلك الحزب من أمثال زوروبى ترا Zoro Bi-Tra وسامبا أمبرواز Samba Ambroise واغتيل بعض أتباعه كما حصل فى قضية السناتور بياكا Biaka وبلغ فى هذه

(29) Ki - ZERBO, op. ct., p. 506.

الفترة عدد القتلى من اتباعه حسب الاعترافات الرسمية للادارة ٥٢ افريقيا. أما المساجين فقد بلغ عددهم حسب الاحصاءات المعترف بها اداريا فقط ٣٠٠٠ مناضل ، وقد منعت الاجتماعات فى حقه . ويبدو أن تراجع هفويت عن مبادىء حزبه الأولى تعود الى تقديره لضعف الامكانيات حيث أصبحت النتائج لا تتلاءم مع التضحيات المبذولة مما دفعه حسب تعبيره للعـــودة الى (طريق الواقعية والتعاون) مع الفرنسيين طبعا .

وقد أعلن انسلاخه عن التعاون مع الشيوعيين على اثـــر محادثات اجراها مع فرانسوا ميتران الذى كان فى ذلك الوقت يشغل منصب وزير المستعمرات (فرنسا ما وراء البحار) La Francé outer-mer ثم جاءته المناسبة للتصالح الكامل معالادارة اثناء تدشين ميناء ابيجان فىسنة ١٩٥١ ، وقد استفادت مجموعة (النواب) من المتاعب التى أصبح يعانيها حـــزب التجمع الديمقراطى الافريقى منذ تراجع زعيمه ولكن بصورة غير مباشرة ، الا أن النتائج المرتقبة من طرفهم فى هذا الاتجاه كان هفويت بوانيى اكثـــر منهم ذكاء فى قطفها ، ففى سنة ١٩٥٦ أصبحت الادارة الفرنسية والزعماء السياسيون فى فرنسا فى انسجام تام مع حزب التجمع الديمقراطى الافريقى فى اتجاهه الجديد ، واعطوه كل المساندة بتعيين زعيمه وزيرا كامل الحقوق فى الحكومة الفرنسية ، فكان أول افريقى يحظى بهذا المنصب .

والخلاصة التى يمكن أن ينتهى اليها الباحث فى هذا الصدد انه بتخلى هفويت بوانيى الذى كان أول وآخر (متطور) يسلك بالتجمع الافريقى هذا الاتجاه ، ولو لفترة محدودة كما أسلفنا ، أصبح من الواضح أنزعامة المتطورين التى هى وليدة الفترة الاستعمارية ، لن تؤدى الى غير التماشى والخـــط المرسوم لها فى النهاية(٣٠) .

---

(٣٠) وهناك من يذهب الآن الى أن العالم كله ذاهب الى الانصهار الكلى فى الحضارة الغربية وهى مسيرة كانت قد بدأت منذ بداية التوسعالاستعمارى الاوروبى ، ولاتزال مستمرة وبخطوات حثيثة جدا . بحيث أصبح معها مصطلح كلمة (الغرب) لا معنى له من الناحية الحضارية لدى كل البشر باســـتثناء المؤرخين . ينظر :

J.M. Robets, the Triumph of the west, London 1985. p. 431.